اشتكت هند زوجة أبى سفيان لرسول الله ﷺ من بخل زوجها فقال لها: خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك وولدك.

ومثال آخر، هب أن ضيفا بمنزلك ورفضت أن تكرمه، وانتهز فرصة بعدك عن المكان الذى يجلس فيه ثم تناول شيئا وأكله. لا يكون تعديا عليك مالم يكن داخلا فى محرم آخر، وبعد ذلك يترك الحق لولى الأمر تنظيم هذه الأمور حتى لا تصير المسائل إلى الفوضى.

وقوله الحق: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» يدعونا إلى اليقظة حتى لا يخدعنا أحد ويدعى الإيمان وهو يريد الانتقام. ويجب أن نتمثل قول الشاعر.

إن عـادت الـعقـرب عـدنـا لهـا

وكـانـت الـنعـل لهـا حـاضـرة

ويختتم الحق الآية الكريمة بقوله: «واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين» أى لا تظنوا أن الله ملككُم فيهم شيئاً، بل أنتم وهم مملوكون جميعا لله. ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

وهذه الآية جاءت بعد آيات القتال، ومعناها: أعدوا انفسكم للقتال فى سبيل الله.

وقوله الحق: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكة» تقتضى منا أن نعرف أن كلمة

«تهلكة» على وزن تَفْعُله ولا نظير لها فى اللغة العربية إلا هذا اللفظ، لا يوجد على وزن تَفْعُله فى اللغة العربية سوى كلمة «تهلُكة»، والتهلكة هى الهلاك، والهلاك هو خروج الشيء عن حال إصلاحه بحيث لا يُدرى أين يذهب، ومثال ذلك هلاك الإنسان يكون بخروج روحه. والحق يقول:

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

فالهلاك ضد الحياة، وعلى الإنسان أن يعرف أن الحياة ليست هى الحس والحركة التى نراها، إنما حياة كل شيء بحساب معين فحياة الحيوان لها قانونها. وحياة النبات لها قانونها، وحياة الجماد لها قانونها، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعل «يهلك» أمام «يحيى» وهو سبحانه القائل:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ... (٨٨) ﴾ [القصص]

فلسنا نحن فقط الذين يهلكون، ولا الحيوانات، ولا النباتات وإنما كل شيء بما فيه الجماد، كأن الجماد يهلك مثلنا، ومادام يهلك فله حياة ولكن ليست مثل حياتنا، وإنما حياة بقانونه هو، فكل شيء مخلوق لمهمة يؤديها، فهذه هى حياته.

وقوله الحق: «ولا تلقوا بأيديكم إى التهلكة» يكشف لنا بعضٌ من روائع الأداء البيانى فى القرآن، ففى الجملة الواحدة تعطيك الشيء ومقابل الشيء وهذا أمر لا نجده فى أساليب البشر؛ فالحق فى هذه الآية يقول لنا: «أنفقوا فى سبيل الله» أى أنفقوا فى الجهاد، كما يقول بعدها: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» لماذا؟ لأن الإنفاق هو إخراج المال إلى الغير الذى يؤدى لك مهمة تفيد فى الإعداد لسبيل الله، كصناعة الأسلحة أو الإمدادت التموينية، أو تجهيز مبانٍ وحصون، هذه أوجه إنفاق المال.

والحق يقول: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة». وكلمة «ألقى» تفيد أن هناك شيئا عاليا وشيئا أسفل منه، فكأن الله يقول: لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، وهل سيلقى الواحد منا نفسه إلى التهلكة، أو أن يلقى نفسه فى التهلكة بين عدوه؟ لا، إن اليد المغلولة عن الإنفاق فى سبيل الله هى التى تُلقى بصاحبها إلى التهلكة؛ لأنه إن امتنع عن ذلك اجترأ العدو عليه، ومادام العدو قد اجترأ على المؤمنين فسوف يفتنهم فى دينهم، وإذا فتنهم فى دينهم فقد هلكوا. إذن فالاستعداد للحرب أنفى للحرب، وعندما يراك العدو قوياً فهو يهابك ويتراجع عن قتالك.

والحق سبحانه - كما يريد منا فى تشريع القتال أن نقاتل - يأمرنا أن نزن أمر القتال وزناً دقيقاً بحسم، فلا تأخذنا الأريحية الاكذبة ولا الحمية الرعناء، فيكون المعنى: ولا تقبلوا على القتال إلا إن كان غالب الظن أنكم ستنصرون، فحزم الإقدام قد يطلب منك أن تقيس الأمور بدقة، فالشجاعة قد تقتضى منك أن تحجم وتمتنع عن القتال فى بعض الأحيان، لتنتصر من بعد ذلك ساعة يكمل الإعداد له.

والمعنى الأول يجعلك تنفق فى سبيل الله ولا تلقى بيدك إلى التهلكة بترك القتال. والمعنى الثانى أى لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بأن تقبلوا على القتا ل بلا داع أو بلا إعداد كاف. إن الحق يريد من المؤمنين أن يزنوا المسائل وزناً يجعلهم لا يتركون الجهاد فيهلكوا؛ لأن خصمهم سيجترىء عليهم، ولا يحببهم فى أن يلقوا بأيديهم إلى القتال لمجرد الرغبة فى القتال دون الاستعداد له. وهذا هو الحزم الإيمانى، إنها جملة واحدة أعطتنا عدة معان.

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله: «احسنوا إن الله يحب المحسنين» الحق يقول: «وأحسنوا». والإحسان كما علمنا رسول الله ﷺ: «أن تعبد الله - أى تطيع أوامره - كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

مشكلة الناس هذه الأيام أنهم يتشبهون بـ «فإنه يراك»، فعملوا الدوائر التليفزيونية المغلقة فى المحلات الكبرى حتى تتم مراقبة سير العمل فى أرجاء المحل، هذه فعل البشر. لكن انظر إلى تسامى الإيمان، إنه يأمرك أنت أن ترى الله،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الشيخان.

فلا تؤد العمل أداء شكلياً يرفع عنك العتب ، بل عليك أن تؤدى العمل بقصد الإحسان فى العمل .

والإحسان فى كل شيء هو إتقانه إتقاناً بحيث يصنع الإنسان لغيره ما يجب أن يصنعه غيره له ، ولو تعامل الناس على هذا الأساس لامتازت كل الصناعات ، لكن إذا ساد الغش فأنت تغش غيرك ، وغيرك يغشك ، وبعد ذلك كلنا نجأر بالشكوى ، وعلينا إذن أن نحسن فى كل شيء : مثلا نحسن فى الإنفاق ، ولن نحسن فى الإنفاق إلا إذا أحسنا فى الكدح الذى يأتى بثمرة ما ننفق ؛ لأن الكدح ثمرته مال ، ولا إنفاق إلا بمال ، فتخرج من عائد كدحك لتصرفه فى المناسب من الأمور .

ودائرة الإحسان لا تقتصر على القتال فقط ، فالأمر هنا عام ، ولا تعتقد أنه أمر فى زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم جزئية من جزئيات الحياة ، إنما كل زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم كل جزئيات الحياة ، فالإحسان إذا كان بالمال فهذا يقتضى أن يحسّن الإنسان الحركة فى الأرض ، ويعمل عملاً يكفيه ويكفى من يعول ، ثم يفيض لديه ما يحسن به .

إذا لم يتوافر المال ، فعليك أن تُحسن بجاهك وتشفع لغيرك ، والجاه قد قومه الإسلام أى جعل له قيمة ، فعلى صاحب الجاه أن يشفع بجاهه ليساعد أصحاب الحقوق فى الحصول على حقوقهم،وعلى الوجيه أيضا أن يأخذ الضعيف فى جواره ويحميه من عسف وظلم القوى ، وعليه بجاهه أن يقيم العدل فى البيئة التى يعيش فيها .

والوجاهة تعنى أن يكون للإنسان احترام أو وزن أو تقدير ، وهذه الأشياء لها مسبقات فى إحسان الشخص ، لا يأخذها بلا سبب ، إنما سبقها عمل جعل له وجاهة عند الناس . فالناس فى العادة لا يحترمون إلا من يكون له لون من الفضل عليهم ، فكأنه احترام مدفوع الثمن ، وليس احتراما مجانياً . وقد يكون الإحسان بالعلم . أو بفضل القوة ، بإعانة الضعيف . أو بإكساب الخبرة للآخرين . أو بتفريج كربة عن مسلم .

إذن وجوه الإحسان فى الأشياء كثيرة، وكلهاتخدم قضية الإيمان. وعندما يرى الكافر المؤمنين وكل واحد منهم يحسن عمله فإن ذلك يغريه بالإيمان. وإذا سألنا: ما الذى زهد دنيانا المعاصرة فى ديننا؟ فسوف نجد أن العالم ينظر إلى دين الله من خلال حركة المسلمين. وهى حركة غير إسلامية فى غالبيتها. صحيح أن بعضاً من عقلاء الغرب وفلاسفته لا يأخذون الدين من حركة المسلمين، وهذا منتهى العدالة منهم لأنه ربما كان بعض المسلمين غير ملتزم بدينه، فلا يأخذ أحد الإسلام منه لمجرد إنه مسلم.

وأتباع الديانات الأخرى يعرفون ان هناك افعالا جرمها دينهم. ومادام هناك أفعال جرمها الدين وسن لها عقوبة فذلك دليل على أنها قد تقع، فأنت عندما ترى شخصاً ينتسب إلى الإسلام ويسرق، هل تقول: إن المسلمين لصوص لا، إن عليك أن تنظر إلى تشريعات الإسلام هل جرمت السارق أو لم تجرمه؟ فلا يقولن أحد: انظر إلى حال المسلمين. ولكن لننظر إلى قوانين الإسلام، لأن الله قدر على البشر أن يقوموا بالأفعال حسنها وسيئها، ولذلك أثاب على العمل الصالح وعاقب على العمل السيىء.

والعقلاء والمفكرون يأخذون الدين من مبادىء الدين نفسه، ولا يأخذونه من سلوك الناس، فقد يجوز أن تقع عين المراقب على مُخالف فى مسألة يحرمها الدين. فلا تأخذ الفعل الخاطىء على أنه الاسلام، وإنما خذه على أنه خارج على الإسلام.

وساعة يرانا العالم مسحنين فى كل شىء فنحن نعطيهم الأسوة التى كان عليها أجدادنا، وجعلت الإسلام يمتد ذلك المد الخرافى الأسطورى حتى وصل فى نصف قرن إلى آخر الدنيا فى الشرق، وإلى آخرها فى الغرب، وبعد ذلك ينحسر سياسيا عن الأرض، ولكن يظل كدين، ويبقى من الإسلام هذا النظام الذى يجذب له الناس. إن الإسلام له مناعة فى خميرته الذاتية إنه يحمل مقومات بقائه وصلاحيته، وهو الذى يجذب غير المسلمين له فيؤمنون به، وليس المسلمون هم الذين يجذبون الناس للإسلام.

ولذلك أقول: لو أن التمثيل السياسى للأمم الإسلامية فى البلاد غير الإسلامية

المتحضرة قد أخذ بمبادىء الإسلام لكان أسوة حسنة . وانظر إلى عاصمة واحدة من عواصم الدول الغربية تجد فيها أكثر من ثلاث وستين سفارة إسلامية ، وكل سفارة يعمل فيها جهاز يزيد على العشرين ، هب أن هؤلاء كانوا أسوة إسلامية فى السلوك والمعاملات فى عاصمة غير إسلامية ، حينئذ يجد أهل ذلك البلد جالية إسلامية ملتزمة ولمْ تفتنها زخارف المدنية : لا يشربون الخمر ، ولا يراقصون ، ولا يترددون على الأماكن السيئة السمعة ، ولا تتبرج نساؤهم ، بالله ألا يلفت النظر سلوكُ هؤلاء ؟

لكن ما يحدث ـ للأسف ـ هو أن أهل الغرب ـ على باطلهم ـ غلبوا بنى الإسلام ـ على حقهم ـ وأخذوهم إلى تحللهم ، وهذا الاتباع الأعمى يجعل الغربيين يقولون : لو كان فى الإسلام مناعة لحفظ أبناءه من الوقوع فيما وقعنا فيه .

إذن الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلى دين الإسلام . إن الحق يقول: « إن الله يحب المحسنين » والحب كما نعرفه هو ميل قلب المحب إلى المحبوب ، وذلك الأمر يكون بالنسبة للبشر ، لكن بالنسبة للحق هو تودد الخالق بالرحمة والكرامة على المخلوق ، والحق سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يكونوا على خُلقه، فكما أن الله أحسن كل شىء خلقه « الذى أحسن كل شىء خلقه » يريد من عباده وقد تفضل عليهم بالعقل المفكر فيخطط ، وبالطاقات فتبرز التفكير إلى عمل يريد الحق منا أن يكون رائدنا فى كل عمل أن نحسنه ؛ حتى نكون متخلقين بأخلاق الله، فتشيع كلمة « الله » هذا اللفظ الكريم الذى يستقبل به الإنسان كل جميل فى أى صنعة ، فيقول : « الله » .

إذن تشيع كلمة « الله » نعمة فى الوجود تعليقاً على كل شىء حسن ، حتى الذى لا يؤمن بذلك الإله يقول أيضاً : « الله » ، كأن الفطرة التى فطر الله الناس عليها تنطق بأن كل حسن يجب أن يُنسب إلى الله سواء كان الله هو الذى فعل مباشرة كالأسباب والكونيات والنواميس ، أو خلق الذى فعل الحسن ، فكل الأمور تؤول إلى الله .

ولو علم الذين لا يحسنون أعمالهم بماذا يحرمون الوجود لتحسروا على أنفسهم،

وليتهم يحرمون الوجود من كلمة «الله»، ولكنهم يجعلون مكان «الله» كلمة خبيثة فيشيعون القبح فى الوجود، وحين يشيع القبح فى الوجود يكون الإنسان فى عمومه هو الخاسر.

فقول الله: «إن الله يحب المحسنين» تشجيع لكل من يلى عملاً أن يحسنه ليكون على أخلاق الله. وبعد ذلك يقول الحق:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾

والنسق القرآنى نسق عجيب، فأنتم تذكرون أنه تكلم عن الصيام. ورمضان يأتى قبل اشهر الحج، فكان طبيعياً أن يتكلم عن الحج بعد أن تكلم عن رمضان وعن الأهلة وعن جعل الأهلة مواقيت للناس والحج كما أن هناك شيئاً أخر يستدعى أن يتكلم فى الحج وهو الكلام عن القتال فى الأشهر الحرم، وعن البيت الحرام فقد قال سبحانه:

﴿ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾

(من الآية ١٩١ سورة البقرة)

إذن فالكلام عن الحج يأتى فى سياقه الطبيعى . وحين يقول الله : « وأتموا الحج والعمرة لله » نفهم منه أن الأمر بإتمام الشيء لا يكون إلا إذا جاء الأمر بفرض هذا الفعل ، فكأنك بدأت فى العمل بعد التشريع به ، ويريد منك سبحانه ألا تحج فقط ، ولكن يريد منك أن تتمه وتجعله تامًا مستوفيًا لكل مطلوبات المشرع له .

وساعة يقول الحق : « وأتموا الحج والعمرة» لقائل أن يقول : إن الحج شيء والعمرة شيء آخر ، بدليل عطفها عليه ، والعطف يقتضى المغايرة كما يقتضى المشاركة ، فإن وُجدت مشاركة ولم توجد مغايرة فلا يصح العطف ، بل لابد أن يوجد مشاركة ومغايرة . والمشاركة بين الحج والعمرة أن كليهما نسك وعباده ، وأما المغايرة فهى أن للحج زمنًا مخصوصًا ويشترط فيه الوقوف بعرفة ، وأما العمرة فلا زمن لها ولا وقفة فيها بعرفة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى مشروعية الحج :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

ولم يأت فى تلك الآية بذكر العمرة ، ومنها نعرف أن الحج شيء والعمرة شيء آخر ، والمفروض علينا هو الحج . ولذلك أقول دائمًا لابد لنا أن نأخذ القرآن جملة واحدة ، ونأتى بكل الآيات التى تتعلق بالموضوع لنفهم المقصود تمامًا ، فحين يقول الحق فى قرآنه أيضا : « وأتمو الحج والعمرة لله » نعرف من ذلك أن العمرة غير الحج ، وحين تقرأ قول الله فى سورة براءة :

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾

(من الآية ٣ سورة التوبة)

نعرف أن هناك حجًا أكبر، وحجًا ثانيا كبيراً . ولذلك فآية «ولله على الناس حج البيت» جاءت بالبيت المحرم، وهو القدر المشترك فى الحج والعمرة. ونعرف أن الحج الأكبر هو الحج الذى يقف فيه المسلم بعرفة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «الحج عرفة»[1]. وهو الحج الأكبر؛ لأن الحشد على عرفة يكون كبيراً، وهو يأتى فى زمن مخصوص ويُشترط فيه الوقوف بعرفة.

إذن قوله تعالى: «ولله على الناس حج البيت» الحج هو القصد إلى مُعظَّم وهو «حج البيت»، أما العمرة فهى الحج الكبير وزمانها شائع فى كل السنة، والقاصدون للبيت يتوزعون على العام كله. وذلك قد ثبت بالتشريع بقوله سبحانه: «ولله على الناس حج البيت». ومادام جاء بالأمر المشترك فى قوله: حج البيت فهو يريد الحج الأكبر والحج الكبير.

والحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده ويعلم أن بعض الناس سيقبلون على العبادات إقبالاً شكلياً، وقد يقبلون على العبادة لأغراض أخري غير العبادة، فكان لابد أن يبين القصد من الحج والعمرة، وأن المطلوب هو إتمامهما، ولابد أن يكون القصد لله لا لشىء آخر، لا ليقال «الحاج فلان»، أو ليشترى سلعاً رخيصة ويبيعها بأغلى من ثمنها بعد عودته .

ونحن نعلم أن الحج هو العبادة الوحيدة التى يستمر اقترانها بفاعلها، فمثلاً لا يقال: «المصلى فلان» ولا «المزكى فلان»، فإن كان الحاج حريصاً على هذا اللقب، وهو دافعه من وراء عبادته فلابد ألا يخرج بعبادته عن غرضها المشروعة من أجله، إن الحق يقول: «وأتموا الحج والعمرة لله» . وكلمة «لله» تخدمنا فى قضايا متعددة، فما هى هذه القضايا؟

إن المسلم عندما يريد أن يحج لله فلا يصح أن يحج إلا بمال شرع الله وسائله. كثير من الناس حين يسمعون الحديث الشريف.

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه.

«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[١]

يعتقدون أن الإنسان له أن يرتكب ما يشاء من معاص ومظالم، ثم يظن أن حجة واحدة تُسقط عنه كل ذنوبه، نقول لهؤلاء: أولاً: لابد أن تكون الحجة لله

وثانيا: أن تكون من مال حلال، ومادامت لله ومن مال حلال فلابد أن نعرف ماهى الذنوب التى تسقط عنه بعد الحج، فليست كل الذنوب تسقط، وإنما الذنوب المتعلقة بالله سبحانه وتعالى؛ لأن الذنب المتعلق بالله أنت لم تظلم الله به، لكن ظلمت نفسك، ولكن الذنب المتعلق بالبشر فيه إساءة لهم أو انتقاص من حقوقهم، وبالتالى فإن ظلم العباد لا يسقط إلا برد حقوق العباد.

ونعرف أن العمرة هى قصد البيت الحرام فى مطلق زمان من العام، والحج قصد البيت فى خصوص زمان من العام، ويقول بعض العلماء: إن هذا تكليف وذاك تكليف، فهل يجوز أداؤهما معاً، أم كل تكليف يؤدى بمعزل عن الآخر؟

وبعضهم تناول ملحظيات الفضل والحسن، فالذى يقول: إن الإفراد بالحج أحسن، فذلك لأنه خص كل نُسك بسفرة، والذى يقول: يؤديهما معاً ويحرم بالحج والعمرة معاً بإحرام واحد، فيذهب أولاً ويأتى بنسك العمرة، ثم يظل على إحرامه إلى أن يخرج إلى الحج، وفى هذه الحالة يكون قد قرن الأمرين معا؛ أى أداهما بإحرام واحد وهذا ما يفضله بعض من العلماء؛ لأن الله علم أن العبد قد أدى نسكين بإحرام واحد، وهناك إنسان متمتع أى يؤدى العمرة، ثم يتحلل منها، وبعد ذلك يأتى قبل الحج ليحرم بالحج، وهذا اسمه التمتع، وهو متمتع لأنه تحلل من الإحرام، ومن العلماء من يقول: إن التمتع أحسن لأنه فصل بين أمرين بما أخرجه عن العادة، أحرم ثم تحلل ثم أحرم.

إذن كل عالم له ملحظ، فكأن الله لا يريد أن يضيق على خلقه فى أداء نُسك على أى لون من الألوان وقد احتاط المشرع سبحانه وتعالى عند التكليف ،

---

(١) رواه البخارى والنسائى وابن ماجه وأحمد عن أبى هريرة.

واحترم كل الظروف سواء كانت الظروف التى قد تقع من غير غريم وهو القدريات، أو تقع من غريم، وهى التى لها أسباب أخرى فقال: «فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى».

وأحصرتم تعنى مُنعتُم. وهناك «حصر» وهى للقدريات، وهناك «أحصر» وتكون بفعل فاعل مثل تدخل العدو كما حوصر رسول الله ﷺ فى عام الحديبية، وقيل له لا تدخل مكة هذا العام، لذلك فالحق سبحانه وتعالى يخفف عنا وكأنه يقول لنا: أنا لا أهدر تهيؤ العباد، ولا نيتهم ولا استعدادهم ولا إحرامهم؛ فإن أحصروا «فما استيسر من الهدى» والهدى هو ما يتم ذبحه تقربا إلى الله، وكفارة عما حَدث.

ثم يقول بعد ذلك: «ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله» أى إلى أن يبلغ المكان المخصص لذلك، هذا إن كنت سائق الهدى، أما إن لم تكن سائق الهدى فليس ضروريا أن تذبحه، ويكفى أن تكلف أحداً يذبحه لك، وقوله الحق: «فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما اتيسر من الهدى» تعنى أنه يصح أن يذبح الأنسان الهدى قبل عرفة، ويصح أن نؤخره ليوم النحر، ويصح أن يذبحه بعد ذلك كله.

«فما استيسر من الهدى» تعنى أيضا إن كان الحصول على الهدى سهلا، سواء لسهولة دفع ثمنه، أو لسهولة شرائه، فقد توجد الأثمان ولا يوجد الْمُثمَّن. «والهدى» هو ما يُهدى للحرم، أو ما يهدى الإنسان إلى طريق الرشاد. والمعنى مأخوذ من الهُدى، وهو الغاية الموصلة للمطلوب.

وقوله تعالى: «ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية» فالمريض الذى لا يستطيع أن يذبح الهدى وعنده أذى من رأسة كالصحابى الذى كان فى رأسه قمل، وكان يسبب له ألما، فقال له رسول الله: «احلق رأسك وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو أنسك بشاة»(١)

إنها تشريعات متعاقبة وكل تشريع له مناسبة، فكما شرع لمن أحصر ما استيسر

(١) رواه البخارى ومسلم.

من الهدى ، كذلك شرع لمن حلق رأسه لمرض أو كان به أذى من رأسه ، شرع له ثلاثة أشياء : صيام أو صدقة أو نسك .

والمتأمل لهذه الأشياء الثلاثة يجد أنها مرتبة ترتيبا تصاعدياً . فالصيام هو أمر لا يتعدى النفع المباشر فيه إلى الغير ، والصدقة عبادة يتعدى النفع فيها للغير ، ولكن بقدر محدود لأنها إطعام ستة أفراد مثلاً ، والنسك هو ذبيحة ، ولحمها ينتفع به جمع كبير من الناس .

فانظر إلى الترقى فى النفع ، إما صوم ثلاثة أيام ، وإما إطعام ستة مساكين ، وإما ذبح ذبيحة أى شاة . إن هذا تصعيد من الأضعف للأقوى كل بحسب طاقته ومقدرته .

والحق سبحانه وتعالى ساعة يشرع كفارات معينة فذلك من أجل مراعاة العمليات المطلوبة فى الحج ، والمناسبة لظروف وحالة المسلم ، فأباح له فى حالة التمتع مثلا أن يقسم الصوم إلى مرحلتين : ثلاثة أيام فى الحج ، وسبعة إذا رجعتم . إنه الترقى فى التشريعات ، واختيار للأيسر الذى يجعل المؤمن يخرج من المأزق الذى هو فيه .

« فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم » .

وكلمة « فمن لم يجد » معناها أنه لا يملك ، وهذا الذى لا يملك نقول له : لا تفعل كما يفعل كثير من الناس قبل أن يطوفوا ، إن بعضهم يذهب للسوق ويشترى الهدايا ، وبعد ذلك ساعة وجوب الهدى عليه يقول : ليس معى ولذلك سأصوم . هنا نقول له : ألم يكن ثمن تلك الهدايا يصلح لشراء الهدى ؟

إنه لأمر غريب أن تجد الحاج يشترى هدايا لا حصر لها ، ساعات وأجهزة كهربائية ويملأ حقائبه ، ثم يقول لا أجد ما أشترى به الهدى . أليس ذلك غشاً

وخداعاً ؟ إن من يفعل ذلك يغش نفسه .

إذن قوله تعالى : «فمن لم يجد» يعنى لا يجد حقا ، لا من تنفد أمواله فى الهدايا ، ثم يصبح صفر اليدين ، ولذلك فالذين يحسنون أداء النسك لا يشترون هداياهم إلا بعد تمام أداء المطلوب فى النسك ، وإن بقى معهم مال اشتروا على قدر ما معهم .

والذين ينفقون أموالهم فى شراء الهدايا ثم يأتون عند «فما استيسر من الهدى» ويقولون ليس معنا ثمن الهدى وسنصوم ، الغريب أنهم لا يتذكرون الصوم إلا عند عودتهم ، ألم يكن الأفضل للواحد منهم أن يصوم من البداية ، من لحظة أن يعرف أنه لا يملك ثمن الهدى ويدخل فى الإحرام للعمرة؟

إن المفروض أن يبدأ فى صوم الثلاثة أيام حتى يكون عذره مسبقاً وليس لاحقاً ، وبعض العلماء أباح صوم أيام التشريق ، وأيام التشريق الثلاثه هى التى تلى يوم العيد لأنهم كانوا «يشرقون اللحم» أى يبسطونه فى الشمس ليجف ويقدد . وبعد ذلك عندما ينتهى من أداء المناسك إما أن يصوم السبعة الأيام فى الطريق وهو عائد ، أو عندما يصل لمنزلة ، إن له أن يختار ما يناسبه «فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة» ومعروف أن «ثلاثة» أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة» ومعروف أن «ثلاثة» و «سبعة» تساوى «عشرة» ، وذلك حتى لا يظن الناس أن المقصود إما صوم ثلاثة أيام وإمّا سبعة أيام ، لذلك قال : «عشرة كاملة» حتى لا يلتبس الفهم .

وربما أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أن الصائم سيصوم عشرة أيام فهى كاملة بالنسبة لأداء النسك . وليس الذابح بأفضل من الصائم ، فمادام لم يجد ثمن الهدى وصام العشرة الأيام ، فله الأجر والثواب كمن وجد وذبح . فإياك أن تظن أن الصيام قد يُنقصُ الأجر أو هو أقل من الذبح .

ويقول الحق : «ذلك لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام» . وهذا التشريع مقصود به من لم يكن أهله مقيمين بمكة . ونعرف أن حدود المسجد الحرام هى اثنا عشر ميلا ، والمقيم داخل هذه المسافة لا يلزمه ذبح ولا صوم ، لماذا؟ بعض العلماء

قال: لأن المقيمين حول المسجد الحرام طوافهم دائم فيغنيهم عن العمرة، فإن حج لا يدخل فى هذا التشريع .

ويختم الحق هذه الآية بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب» . كيف يقول الحق : إنه شديد العقاب فى التيسيرات التى شرعها ؟ أى : إياكم أن تغشوا فى هذه التيسيرات ، فليس من المعقول أو من المقبول أن ندلس شيئاً فيها ، لذلك حذرنا سبحانه من الغش فى هذه المناسك بقوله : « واعلموا أن الله شديد العقاب » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾

ولنا أن نلحظ أن الحق قال فى الصوم : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ولم يذكر شهور الحج : شوالاً وذا القعدة وعشرة من ذى الحجة كما ذكر رمضان ، لأن التشريع فى رمضان خاص به فلابد أن يعين زمنه ، لكن الحج كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام ، ويعلمون شهوره وكل شيء عنه ؛ فالأمر غير محتاج لذكر أسماء الشهور الخاصة به ، والشهور المعلومة هى : شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذى الحجة وتنتهى بوقفة عرفات وبأيام منى ، وشهر الحج لا يستغرق منه سوى عشرة أيام ، ومع ذلك ضمه لشوال وذى القعدة ، لأن بعض الشهر يدخل فى الشهر .

وكلمة « معلومات » تعطينا الحكمة من عدم ذكر أسماء شهور الحج ، لأنها كانت معلومة عندهم .

« فمن فرض فيهن الحج » والفرض ليس من الإنسان إنما الفرض من الله الذى فرض الحج ركنا ، وأنت إن ألزمت به نفسك نية وفعلاً ، وشرعت ونويت الحج فى الزمن المخصوص للحج تكون قد فرضت على نفسك الحج لهذا الموسم الذى تختاره وهو ملزم لك . وقوله سبحانه : « فرض » يدل على أنك تلتزم بالحج وإن كان مندوباً . أى غير مفروض .

« فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » . والرفث للسان ، وللعين . وللجوارح الأخرى رفث ، كلها تلتقى فى عملية الجماع ومقدماته ، ورفث اللسان فى الحج أن يذكر مسألة الجماع ، ورفث العين أن ينظر إلى المرأة بشهوة . فالرفث هو كل ما يتأتى مقدمة للجماع ، أو هو الجماع أو ما يتصل به بالكلمة أو بالنظرة ، أو بالفعل .

والرفث وإن أُبيح فى غير الحج فهو محرم فى الحج ، أما الفسوق فهو محرم فى الحج وفى غير الحج ، فكأن الله ينبه إلى أنه وإن جاز أن يحدث من المسلم فسوق فى غير الحج ، فليس من الأدب أن يكون المسلم فى بيت الله ويحدث ذلك الفسوق منه ، إنّ الفسوق محرم فى كل وقت ، والحق ينبه هنا المسرف على نفسه ، وعليه أن يتذكر إن كان قد فسق بعيداً عن بيت الله فليستح أن يعصى الله فى بيت الله ؛ فالذاهب إلى بيت الله يبغى تكفير الذنوب عن نفسه ، فهل يُعقل أن يرتكب فيه ذنوبًا ؟ لابد أن تستحى أيها المسلم وأنت فى بيت الله ، واعلم أن هذا المكان هو المكان الوحيد الذى يُحاسب فيه على مجرد الإرادة .

يقول الله عز وجل : .

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحج)

إذن الرفث حلال فى مواضع ، لكنه يَحْرُمُ فى البيت الحرام ، ولكن الفسوق ممتنع فى كل وقت ، وامتناعه أشد فى البيت الحرام .

والجدال وإن كان مباحا فى غير الحج فلا يصح أن يوجد فى الحج . ولنا أن نعرف أن مرتبة الجدال دون مرتبة الفسوق ، ودون مرتبة العصيان ، والرسول قال : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »[1] لم يقل : « ولم يجادل » إن بشرية الرسول تراعى ظروف المسلمين ، فمن المحتمل أن يصدر جدال من الحاج نتيجة فعل استثاره ، فكأن عدم ذكر الجدال فى الحديث فسحة للمؤمن ولكن لا يصح أن نتمادى فيها .

والجدال ممكن فى غير الحج بدليل :

﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النحل)

إنما الحج لا جدال فيه .

والجدل هو أن يلف كل واحد من الطرفين على الآخر ليطوقه بالحجة . ثم انظر إلى تقدير الحق لظروف البشر وعواطف البشر والاعتراف بها والتقنين لأمر واقع معترف به ، فالحج يُخرج الإنسانَ من وطنه ومن مكان أهله ، ومن ماله ، ومما إلف واعتاد من حياة . وحين يخرج الإنسان هذا الخروج فقد تضيق أخلاق الناس ؛ لأنهم جميعاً يعيشون عيشة غير طبيعية ؛ فهناك من ينام فى غرفة مشتركة مع ناس لا يعرفهم ، وهناك أسرة تنام فى شقة مشتركة ليس فيها إلا دورة مياه واحدة ، ومن الجائز أن يرغب أحد الأفراد فى قضاء حاجته فى وقت قضاء حاجة شخص آخر ، وحين تكون هذه المسألة موجودة لا رأى لإنسان ، ولذلك يقال : « لا رأى لحاقن » أى لا رأى لمحصور .. أى لمن يريد قضاء حاجته من بول ، وكذلك الشأن فى الحاقب وهو الذى يحتبس غائطه لأنها مسألة تُخِل توازن الإنسان .

---

(١) رواه أحمد ، والبخارى ، والنسائى وابن ماجه .

إذن فالحياة فى الحج غير طبيعية، وظروف الناس غير طبيعية ، لذلك يحذرنا الحق من الدخول فى جدل؛ لأنه ربما كان الضيق من تغيير نظام الحياة سبباً فى إساءة معاملة الآخرين، والحق يريد أن يمنع هذا الضيق من أن يؤثر فى علاقتنا بالآخرين . وقد أثبتت التجربة أن من يذهبون للحج فى جماعة إما أن يعودوا متحابين جداً، وإما أعداء ألداء .

ولذلك يطلب إلينا الحق أن يصبر كل إنسان على مايراه من عادات غيره فى أثناء الحج ، وليحتسب خروجه عن عاداته وعن رتابة أموره وعن أنسه بأهله يحتسب ذلك عند الله، وليشتغل بأنس الله، وليتحمل فى جانبه كل شيء، ويكفى أنه فى بيت الله وفى ضيافته .

والحق سبحانه وتعالى يقول: «وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» . فبعد أن نهانا الحق بقوله : «فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج» وتلك أمور سلبية وهى أفعال على الإنسان أن يمتنع عنها، وهنا يتبع الحق الأفعال السلبية بالأمر بالأفعال الإيجابية ، أفعال الخير التى يعلمها الله .

إن الله يريد أن نجمع فى العبادة بين أمرين ، سلب وإيجاب ، سلب ما قال عن الرفث والفسوق والجدال ، ويريد أن نوجب ونوجد فعلا . «وما تفعلوا من خير يعلمه الله» . وما هو ذلك الخير؟ إنها الأمور المقابلة للمسائل المنهى عنها، فإذا كان الإنسان لا يرفث فى الحج فمطلوب منه أن يعف فى كلامه وفى نظرته وفى أسلوبه وفى علاقته بأمرأته الحلال له . فيمتنع عنهامادام محرماً ويُطلب منه أن يفعل ما يقابل الفسوق، من بر وخير .

وفى الجدال نجد أن مقابله هو الكلام بالرفق والأدب واللين وبحلاوة الأسلوب وبالعطف على الناس ، هذا هو المقصود بقوله : «وما تفعلوا من خير

يعلمه الله». وكلمة منْ في قوله «من خير» للابتداء، كأن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تصنع خيراً وهو سبحانه يرى أقل شيء من الخير؛ ولذلك قال: «يعلمه الله». فكأنه خير لا يراه أحد؛ فالخير الظاهر يراه كل الناس؛ والتعبير «يعلمه الله» أي الخير مهما صغر، ومهما قل فإن الله يعلمه، وكثير من الخيرات تكون هواجس بالنية، ويجازي الله على الخير بالجزاء الذي يناسبه.

وقوله الحق: «وتزودوا» والزاد: هو ما يأخذه المسافر ليتقوى به على سفره، وكان هذا أمراً مألوفا عند العرب قديما؛ لأن المكان الذي يذهبون إليه ليس فيه طعام. وكل هذه الظروف تغيرت الآن، وكذلك تغيرت عادات الناس التي كانت تذهب إلى هناك. كانت الناس قديماً تذهب إلى الحج ومعها أكفانها، ومعها ملح طعامها، ومعها الخيط والإبرة، فلم يكن في مكة والمدينة ما يكفي الناس؛ وأصبح الناس يذهبون الآن إلى هناك ليأتوا بكماليات الحياة، وأصبحت لا تجد غرابة في أن فلانا جاء من الحج ومعه كذا وكذا. كأن الحق سبحانه وتعالى جعل من كل ذلك إيذانا بأنه أخبر قديما يوم كان الوادي غير ذي زرع فقال:

﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله: «يجبى» ومعناها يؤخذ بالقوة وليس باختيار من يذهب به، فكأن من يذهب بالثمرات بكل ألوانها إلى هناك مرغم أن يذهب بها، وهو زرق من عند الله، وليس من يد الناس.

وهذا تصديق لقوله تعالى:

﴿ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقوله الحق: «وتزودوا» مأخوذة - كما عرفنا - من الزيادة، والزاد هو طعام المسافر، ومن يدخر شيئا لسفر فهو فائض وزائد عن استهلاك إقامته، ويأخذه حتى يكفيه مئونة السؤال أو الاستشراف إلى السؤال؛ لأن الحج ذلة عبودية، وذلة العبودية يريدها الله له وحده. فمن لا يكون عنده مئونة سفره فربما يذل لشخص آخر، ويطلب منه أن يعطيه طعاما، والله لا يريد من الحاج أن يذل لأحد، ولذلك

يطلب منه أن يتزود بقدر حاجته حتى يكفى نفسه ، وتظل ذلته سليمة لربه . فلا يسأل غير ربه ، ولا يستشرف للسؤال من الخلق ، ومَنْ يسأل أو يستشرف فقد أخذ شيئاً من ذلته المفروض أن تكون خالصة فى هذه المرحلة لله وهو يوجهها للناس ، والله يريدها له خالصة .

وإن لم يعط الناس السائل والمستشرفُ للسؤال فربما سرق أو نهب قدر حاجته ، وتتحول رحلته من قصد البر إلى الشر . وكان بعض أهل اليمن يخرجون إلى الحج بلا زاد ويقولون : « نحن متوكلون ، أنذهب إلى بيت الله ولا يطعمنا ؟ » . ثم تضطرهم الظروف لأن يسرقوا ، وهذا سبب وجود النهب والسرقة فى الحج . إن إلحاح الجوع قد يدفع الإنسان لأن ينهب ويسرق ليسد حاجته .

ومن هنا أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقطع على النفس البشرية هذا الشر، فقال : « وتزودوا » إنه أمر من الله بالتزود فى هذه الرحلة التى ينقطع فيها الإنسان عن ماله وعن أهله وعن أحبابه وعن معارفه، ويقول سبحانه : « فإن خير الزاد التقوى » ونعرف أن الزاد هو ما تَقى به نفسك من الجوع والعطش ، وإذا كان التزود فيه خير لاستبقاء حياتك الفانية ، فما بالك بالحياة الأبدية التى لا فناء فيها ، ألا تحتاج إلى زاد أكبر ؟ فكأن الزاد فى الرحلة الفانية يعلمك أن تتزود للرحلة الباقية .

إذن فقوله : « فإن خير الزاد التقوى » يشمل زاد الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى يذكرنا بالأمور المُحَسّة وينقلنا منها إلى الأمور المعنوية ، ولكن إذا نظرت بعمق وصدق وحق وجدت الأمور المعنوية أقوى من الأمور الحسية . ولذلك نلاحظ فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

هذا أمر حسى. ويفيدنا ويزيدنا سبحانه «ريشاً » إنه ـ سبحانه ـ لا يوارى السوءة فقط، وإنما زاد الأمر إلى الكماليات التى يتزين بها ، وهذه الكماليات هى الريش ، أى ما يتزين به الإنسان ، ثم قال الحق :

﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

أي أنعمت عليكم باللباس والريش ، ولكن هناك ما هو خير منهما وهو « لباس التقوى » . فإن كنت تعتقد في اللباس الحسي أنه سَتَرَ عورتك ووقاك حراً وبرداً وتزينت بالريش منه فافهم أن هذا أمر حسي ، ولكن الأمر الأفضل هو لباس التقوى ، لماذا ؟ لأن مفضوح الآخرة شر من مفضوح الدنيا .

إذن فقوله : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » . يعني أن الحق يريد منك أن تتزود للرحلة زاداً يمنعك عن السؤال والاستشراف أو النهب أو الغصب ، واحذر أن يدخل فيه شيء مما حرم الله ، ولكن تزودك في دائرة : « واتقون يا أولى الألباب » أي يا أصحاب العقول ، ولا ينبه الله الناس إلى ما فيهم من عقل إلا وهو يريد منهم أن يُحَكِّمُوا عقولهم في القضية ، لأنه جل شأنه يريد منك أن تُحَكِّمَ عقلك ، فإن حَكَّمْتَ عقلك في القضية فسيكون حُكْمُ العقل في صف أمر الله .

ولما كان الله ـ سبحانه ـ بسعة لطفه ورحمته ـ يريد في هذه الشعيرة المقدسة والرحلة المباركة أن يتعاون الناس ، أذِنَ لجماعةٍ من الحجاج أن تقوم على خدمة الآخرين تيسيراً لهم . ومن العجيب أن الذين يقومون بخدمة الحجاج يُرخصُ الله لهم في الحج أن ينفروا قبل غيرهم ؟ لأن تلك مصلحة ضرورية . فهب أن الناس جميعا امتنعوا عن خدمة بعضهم بعضا فمن الذى يقوم بمصالح الناس ؟ إذن لابد أن يذهب أناس وحظهم العمل لخدمة الحجاج ،والله ـ سبحانه وتعالى ـ بين ذلك ووضحه بقوله :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ